﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فُصّلت: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تنزيهُ المُقرَّبين للخالق بلا كللٍ أمامَ استكبارِ المعاندين وسجودهم للأجرام

لمّا كانوا في أمر السُّجود للشَّمس والقمر، والسُّجودِ لله خالقِهنَّ بين طاعةٍ ومعصية، وكان دَرْءُ المفاسدِ مُقدَّمًا؛ سبَّبَ عن ذلك التَّعبير بأنَّ استكبارهم عن عبادته سبحانه بعد إقامة هذه الأدلَّة ينبغي ألّا يُتوَهَّم، وأنَّ المُقرَّبين المَرضيين عند ربِّك ينزِّهونه في الأحوال كلِّها، ولا يفترون[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على الامتناعِ وعَدَمِ الانقيادِ، يُقال: تَكَبَّرَ البَعيرُ: إذا امتَنَعَ، ولم يَنقَد[2]، والكِبْرُ: التَّعاظُمُ والاتِّصافُ بالعَظَمَةِ، ويُقال له أيضًا: التَّكَبُّرُ والاستكبارُ، وضِدُّهُ: التَّواضُعُ والتَّصاغُرُ، والمُتَكَبِّرُ: المُتعالي والمُتعاظِمُ[3]، والمُراد بالاستكبارِ في الآية: المُبالغةُ في الكِبْرِ، أي: التَّعاظُمُ واحتقارُ النّاسِ[4].

2) ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: (سبح) أصلٌ يدُلُّ على جِنْسٍ من العبادَةِ، وأصلُه منَ السَّبْحِ، وهو: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، كقولهم: سَبَّحْتُ في الأرْضِ، أي: أبعَدْتُ فيها[5]، والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّقديسُ والتَّبرِئَةُ[6]، وهو بمعنى قَوْلِ: سُبْحانَ اللهِ، ويُطْلَقُ أيضًا على التَّنَفُّلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194، 195.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 256.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح)، والخطّابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).

والتَّطَوُّعِ بِالعِبادَةِ[1]، والمُرادُ في الآيةِ: كُلُّ ما يدُلُّ على تَنْزيهِ اللّه تعالى عمّا لا يليقُ بإثباتِ أضدادِ ما لا يليقُ، أو نفي ما لا يليقُ[2].

3) ﴿يَسْـَٔمُونَ ۩﴾: أصلُ السَّآمةِ: المَلَلُ والضَّجَرُ ممّا يَكْثُر لُبْثُه، فعلًا كان أو انفعالًا[3]، يُقالُ: سَئِمَ زيدٌ فُلانًا ومن فلانٍ[4]، وهي في الآية بمعنى: الضَّجرِ والمَلَلِ من الإعياءِ، أيْ: يَمَلّونَ، ويَفتُرونَ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استكبارُ الجاهلين عن عبادة الله تعالى وحدَه، لن يُنْقِص من مُلْكِه شيئًا

يقول اللّهُ تعالى: فإن استكبرَ هؤلاءِ المشركون الَّذين يعبدون هذه الكواكبَ، وأبَوا إلّا أن يسجدوا لها وحدَها دونَ اللّه، فاللّهُ لا يَعْبَأ بهم، فلَهُ عِبادٌ آخَرونَ هم الملائِكةُ الَّذين عِندَ رَبِّك - يا مُحمَّدُ - فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا، وهم لا يَمَلّونَ مِن ذلك[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾:

تفريعٌ على نهيهم عن السُّجود لغير اللّه، أو عدمِ الإقرار بما تشهد به الآيات

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ جاءت للتَّفريع على نهيهم عن السُّجود للشَّمس والقمر، والأمر بالسُّجود للّه وحده، والمعنى: إن أبَوا أن يستجيبوا لهذا الأمر الجليل، واستكبروا عنِ اتِّباعك، أو صمَّموا على الاستمرار في سجودهم لغير اللّه تعالى، أو إن استكبروا عن الإقرار بما تشهد به آيات اللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر من دلالات واضحة على تفرُّد اللّه بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة[7]، فَدَعْهم في استكبارهم، فقد قامت عليهم الحُجَّة، وبان الحقُّ الذي لا لبسَ فيه.

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سأم).
(4) السمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (سأم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 364، والمراغيّ، تفسير القرآن: 42/ 135، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 300.

دلالةُ التَّعبير بـ(إن) في قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾:

(إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ حرفٌ دالٌّ على الشَّرط[1] يحمل دلالة التَّردُّد والشَّكِّ والاحتمال، جاءت لتضع المخاطَبين أمام اختيارهم الحُرِّ بين الطّاعة والمعصية، ومع أنَّ الأدلَّة السّاطعة قد أُقيمت عليهم، فإنَّ التَّعبير بـ(إنْ) يشير إلى أنَّ استكبارهم في هذا السّياق لا ينبغي أن يُتصوَّر، أو يُتوهَّم بعد هذه البراهين الدّالَّة على وحدانيَّة الله تعالى[2].

أداة الشَّكِّ والظَّنِّ في مواجهة استكبار لا يُتصوَّر

سرُّ التَّعبير بالاستكبار دون الاستعلاء:

التَّعبير بالاستكبار دون الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ لأنَّه أراد أن يكون تكميلًا ثانيًا، وتسليةً للرَّسول ﷺ، ومِن ثَمَّ يقول له اللهُ تعالى بأن يدعهم وشأنَهم، لكنَّها أيضًا تحتوي على ذَمٍّ لمن ترك السُّجود، فاستعمالُ عبارة الاستكبار في سياق الشَّرط أتى بدلًا من عدم السُّجود في السّياق نفسِه؛ إقامةً للسَّبب محلَّ المسبَّب؛ للتَّعبير عن علَّة تركِهم للسُّجود بأسلوب بليغ ومُؤثِّر[3].

تتميمٌ للمعنى، وتسليةٌ للرَّسول، وذمٌّ لمَن ترك السُّجود بأسلوب مؤثِّر

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾:

استُعمِل فعلُ الاستكبار بدلًا من التَّكبُّر؛ لإظهار معنى التَّعمُّد، والإصرارِ على رفض الامتثال لأوامر الله ﷻ، وذلك بإعراضهم عن عبادته وتركِ طاعته، والتَّصدّي لدعوة رسُلِهِ إلى الإيمان به وتوحيده[4]، فالاستكبارُ يحمل دلالةً أعمق؛ إذ يُشير إلى محاولة التَّعالي المصطنع أمامَ الحقِّ، مع الإصرار على معاندة الدَّعوة إلى التَّوحيد، والاستكبار في حقيقته صورةٌ مضخَّمة للتَّكبُّر، والسّين والتّاء فيه للمبالغة، فالأصل فيهما إفادةُ الحُسبان والتَّوهُّم، فكأنَّهم

تعمُّد العناد والإصرار على رفض الحقِّ من الله ورسله

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 395.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 611.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 84.

حسبوا أنفسَهم أهلَ كبرياء عظيم، يتجاوز حدوده الطَّبيعية، نتيجةَ غلوِّهم في التَّكبُّر[1]، وتوهُّمهم العَظَمة التي لا تليق إلّا بالله ﷻ.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ دون المضارع:

استكبارُهم في الماضي في سياق الشَّرط، تنزيلٌ له منزلةَ الأمر المتحقَّق

الفعل من قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ دالٌّ على المُضي[2]، وهي دلالةُ تحقُّق الفعل وثبوتِه، وإظهارُ استكبارِهم كواقعٍ قائم، لا موضعَ فيه للإنكار أو الشَّكِّ، بإصرارهم على موقفهم، وفي ذلك ملمحٌ بلاغيٌّ خفيٌّ، فإنَّ استكبارَهم هذا واقعٌ في سياق الشَّرط، فكأنَّه نزَّله هنا منزلةَ الأمر الواقع المتحقِّق.

دلالةُ التَّعبير بضمير الجماعة في قوله: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

شموليَّةُ استكبارِ المشركين جميعًا

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ يُشير إلى الجمع؛ ليشملَ جميعَ المشركين، فيُظهر بذلك أنَّ الله غنيٌّ عن عبادتهم جميعًا[3]؛ إذ لا يُنقِصُ من عَظَمته استكبارُهم أو إعراضُهم.

دلالةُ حذف متعلِّق ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

استكبارٌ يتجاوز الامتناعَ إلى الامتثال للباطل

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعل ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ للإشارة إلى إطلاق دلالته على عدم الامتثال؛ إذ كان الظّاهر أن يُقال: استكبروا عن السُّجود أو عن العبادة، ولكنَّ العدولَ عن ذِكْرِه جاء ليكشفَ أنَّ استكبارهم لم يكن مُجرَّدَ رفضٍ للسُّجود أو العبادة لله فحسب، بل تجاوز ذلك إلى عدم الامتثال لأمره حينما سجدوا لغيره تعالى[4].

غرضُ التَّعبير بالغَيبة في فعل الاستكبار:

تحقيرٌ واستنكار لإصرار المستكبرين على العناد والتَّجاوز

بعد أن خاطبَهم في الجملة السّابقة بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾، استعمل هنا طريقة الغيبة في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ لإظهار التَّحقير والإبعاد، وكأنَّهم لا يستحقّون شرفَ الخطابِ المباشر، ففي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 395.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(4) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 400.

هذا الانتقال البلاغيِّ تعبيرٌ عن غضب الله واستنكارِه لسلوكهم، مع إيحاءٍ بأنَّ استكبارَهم قد أصبح أمرًا مفروغًا منه ومُتوقَّعًا[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّة، أي: لأنَّ الذين عند ربِّك...[2]؛ إذ تحمل الجملة تعليلًا لجواب الشَّرط المقدَّر، كأنَّ المعنى: فإن استكبروا عن السُّجود والطّاعة؛ فَدَعهم وشأنَهم، فإنَّ في مُلك الله تعالى مَن هم أحقُّ وأخلصُ في عبادته، وهم الذين عند ربِّك، يُسبِّحون له ليلًا ونهارًا بلا انقطاعٍ ولا فتورٍ[3].

دَعِ المستكبرين، ففي مُلك الله مَنْ هم أخلصُ في طاعته، لا يَفترونَ عن عبادته

سرُّ التَّعبير بالظَّرفية ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، ودلالةُ إضافتها:

الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ تُشير إلى الزُّلفى والمكانة الرَّفيعة، والكرامةِ العظيمة التي يحظى بها المؤمنون عند ربِّهم[4]، والقربِ من الله ﷻ، والتَّقديرِ الإلهيِّ للمؤمنين، ممّا يعزِّز شعورَ الطُّمأنينة والرِّضا في قلوبهم.

رفعةُ المقدار والحظوة الإلهيَّة والكرامة العظيمة

دلالةُ كاف الخطاب في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

تدلُّ كافُ الخطاب في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على خصوصيَّة المُقرَّبين من الله تعالى في درجة الرِّضا والكرامة، ممّا يعكس مكانتَهم الرَّفيعةَ والمميَّزة، ويَحْظَون بالتَّقدير والعناية الإلهيَّة في كلِّ أحوالهم، ويبقى الكفّار عاجزين عن الوصول إلى مثل هذه المكانة، أو التَّقرُّب منهم بأيِّ وجه[5].

هم مُقرَّبون لديه في درجة الرِّضا والكرامة

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة دونَ اسم الجلالة (الله):

سرُّ التَّعبير بالرَّبِّ بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ بدلًا من الاسم الجليل

رتبةٌ عليَّةٌ فيها البشارةُ للسُّعداء والنِّذارةُ للأشقياء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 8/ 298.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 355.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 201، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194، 195.

(اللّه)، يكمن في الإشارة إلى الإحسان والعناية الرَّبّانيَّة، ويمثِّل بشارةً للمؤمنين، ونِذارةً للكافرين[1]؛ إذ يتجلّى وصفُ الإحسان والرَّحمة في لفظ (الرَّبِّ)، ممّا يُبيِّن مدى القُرب والخصوصيَّة التي يتمتَّعُ بها المُقرَّبون من اللّه تعالى.

سرُّ إيثار التَّسبيح في قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾:

مقام التَّنزيه في بيان الإخلاص وإعلان التَّقديس

آثَرتِ الآيةُ استعمالَ التَّسبيح في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ عوضًا من التَّحميد؛ لأنَّ السّياق يتحدَّث عن الشِّرك والسُّجود لغير اللّه تعالى، فجاء التَّسبيحُ ليُعبِّر عن تنزيه اللّه عن كلِّ نقص، ولإبعاده عن الشِّرك بما يليق بجلال عُلوِّه الأقدس وعزَّته الكبرى، دون أن يكون ذلك لأيِّ غرض آخر سوى الإخلاص التّامِّ في عبادته[2]، فكان المناسبُ هنا ذِكرَ التَّسبيحِ بمعنى التَّنزيه؛ لأنَّه موضعه، لا التَّحميدِ الذي يحمل معنى الثَّناء على النِّعَم.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يُسَبِّحُونَ﴾:

مواظِبون على التَّسبيح لا ينفكّون عنه لحظةً واحدة

التَّعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يحمل دلالةَ الاستمرار والتَّجدُّد؛ إذ يُشير إلى مواظبتهم الدّائمة على تسبيحه جلَّ ثناؤه من غير انقطاع أو فتور؛ إذ يستمدّون لذَّتَهم وحياتهم من التَّسبيح، كما يُلْهَمُ الآدميّون النَّفَس.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

أقوامٌ مُعيَّنون مختصّون بتسبيحه تعالى وتقديسه مواظِبون على ذلك

تقديم الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يدلُّ على اختصاص فئة محدَّدة من الملائكة بالتَّسبيح المطلق للّه تعالى دونَ غيره من الأعمال؛ إذ إنَّ عملهم كلَّه مقصورٌ على هذه العبادة العظيمة، لا ينشغلون بسواها، ولا ينفكّون عنها طرفةَ عين؛ فلا يلحقُهُمُ التَّعبُ؛ فالتَّسبيح لهم كالنَّفَس لبني آدم[3]، وإن كانت طوائفُ أخرى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 194.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195.
(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 5/ 54.

من الملائكة مكلَّفةً بأعمال أخرى، فإنَّ المراد في هذا المقام ذِكْرُ أولئك المواظبين على التَّسبيح دومًا، وأنَّ عملهم مقتصرٌ على التَّسبيح حسب[1].

سرُّ التَّعبير بالإضمار ﴿لَهُۥ﴾ دون الإظهار:

لمّا جوزي أولئكمُ الملائكة الكرام بالتَّقريب؛ أداموا التَّسبيح مخلصين لله مُحبّين، واللّام حرف جر زائد للتأكيد، ولتقوية عبوديَّتهم بخالقهم وعبادتهم له، وإنَّما لم يقل هنا: يسبِّحون لله، كما جاء: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: 1]؛ للدَّلالة على أنَّه لا أحدَ يبلغ بعبادته أداءَ حقِّ الله عليه، ولا يَقْدُرُه قَدْرَه أداءً لحقِّه.

مَن عرف الله؛ اتَّقاه وخاف مقامه

دلالة الباء في قوله: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾:

حرف الباء في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة، كما هو شأنه في لسان العرب[2]؛ إذ يفيد التَّزامنَ مع الوقت؛ كنايةً عن دوام تسبيحهم لله تعالى بالليل والنَّهار، وتوالي الأيّام واللَّيالي[3]، ويُحتمل أن يكون حرفُ الباء في جملة التَّسبيح من الآية دالًّا على الإلصاق والتَّوكيد؛ ليُشيرَ إلى ارتباط التَّسبيح بزمانه اتِّصالًا وثيقًا، ممّا يُفيد الاستمراريَّة والدَّوامَ دونَ انقطاع[4].

ظرفيَّة الباء، ومشهدُ التَّسبيح، واحتضانُ الزَّمن المستمرِّ

دلالة (أل) في ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾:

الألف واللّام في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ للاستغراق، "وذِكْرُ اللَّيل والنَّهار هنا لقصد استيعاب الزَّمان، أي: يسبِّحون له الزَّمانَ كلَّه"[5]، في إشارة إلى أنَّ الملائكة مستغرِقون في العبادة الوقتَ كلَّه من غير انقطاع في جميع لحظات اللَّيل والنَّهار، في أعلى درجات العبوديَّة والإخلاص.

الاستغراقُ الزَّمنيُّ في تسبيح الملائكة واستمراره

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 17/ 144.
(2) السّامرائي، معاني النحو: 3/ 93.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195، والعثيمين، تفسير القرآن الكريم: (فصّلت)، ص: 204.
(4) الهلال، تفسير القرآن الرّيّ: 24/ 167.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.

سِرُّ تقديم اللَّيل على النَّهار:

يعلمُنا اللهُ الالتذاذَ بذِكْره والاستئناسَ به، وأنَّ أدلَّ الأوقات على صِحَّة الحُبِّ وقوَّة اليقين ما استسرَّ به المَرْءُ وأخفاه، وأنَّ خُلوص العبد لربِّه مَجْلَبَةٌ لنِعمه عليه، وبذلك فلْيَتأسَّ أولو الهِمَم وذَوو العزائم، ومَن رام المنافسة على منازل القُرْب.

المعبود لا تخفى عليه خافيةٌ، والعباد لا يُراؤون بعبادتهم

بلاغةُ الكناية في ذِكْر اللَّيل والنَّهار:

لئن سأل سائلٌ عن وجه ذِكْر اللَّيل والنَّهار ظَرفًا لتسبيح الملائكة مع انتفاء ذلك الزَّمن بالنِّسبة إلى الملائكة في الملأ الأعلى؟ فالجواب عن ذلك: أنَّ قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إنَّما هو كنايةٌ عن استمرارهم في التَّسبيح، ودوامهم عليه[1]، زيادةً في مدحهم والثَّناء عليهم.

يُجدِّدون التَّسبيحَ والتَّنزيه مُستمرّين عليه في كلِّ وقتٍ

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ دالَّةٌ على العطف[2]، بعطف جملةِ نفي السّآمة والمَلل عن التَّسبيح، في إشارة إلى أنَّ هذا الفعل هو ديدَنهم الدّائمُ الذي لا ينفكّون عنه أبدًا[3]، ويجوز في الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ أن تكون دالَّةً على الحال[4]، في تعبير أدقَّ: عن الملائكة في حال تسبيحهم المستمرِّ دونَ سآمة أو مَلل، ويوضِّح مدى تفانيهم وإخلاصهم في العبادة، ممّا يجعل الإخبارَ عنهم بهذا الحال أكثرَ تأثيرًا وعمقًا، فشأنُ العمل الدّائم أن يسأم منه عامِلُه[5]، ممّا يعكس عجبَ حالِهم في عبوديَّتهم المستمرَّة لله ﷻ.

التَّسبيح ديدنهم الدّائم الذي لا ينفكّون عنه أبدًا

دلالةُ التَّعبير بالإضمار (هُمْ) عن الملائكة:

التَّعبير بالإضمار في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩﴾ عن الملائكة،

تسبيحُهم الدّائمُ بلا سآمةٍ أو مَللٍ أمرٌ مُؤكَّدٌ

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 285، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 377.
(2) الخرّاط، المجتبى: 3/ 1125.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 513.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 301.

هو لتوكيد استمراريَّتِهم في التَّسبيح والتَّنزيه دونَ كللٍ أو ملل، وأنَّه هو عملُهم المستمرُّ[1]، كما أنَّه يُشير إلى تفرُّدهم واختصاصهم بهذه العبادة.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

دوامُ التَّسبيح وثباتُ التَّقديس

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾ جملةٌ اسميَّة من المبتدأ والخبر[2]، تحمل دلالةً بيانيَّة رائعة على الدَّوام والثَّبات[3]، فهذا التَّقديم إظهارٌ لحالهم المستمرَّة التي لا تتغيَّر، فهُم على تسبيحهم دائمًا، لا يَمَلّون، ولا يتعبون، ممّا يعكس كمالَ إخلاصهم، وتمامَ استغراقهم في عبادة الله ﷻ.

دلالةُ التَّعبير بجملة ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾ في ختام الآية:

لا يكلّون، ولا يملّون من عبادته وتقديسه، كما يسأم البشرُ أحيانًا

التَّعبير بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾ يحمل دلالةً بليغةً تُظهر تَفرُّدَ الملائكةِ في عبادتهم؛ إذ يُخبرنا النَّصُّ الكريم أنَّهم لا يصيبُهم المَلَلُ أو الكَلَلُ من عبادة الله تعالى، على عكس البشر الذين قد تعتريهم السَّآمةُ والملال أحيانًا[4]، مهما عَظُمَت همَّتُهم، وفي ذلك إظهارٌ لكمال طاعتِهم، وتمامِ إخلاصهم في عبادة ربِّهم.

سرُّ التَّعبير بنفي السَّآمة في قوله: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾:

نفي البدايات قاضٍ على النِّهايات

السَّأمُ أوَّلُ مراحل الضَّجر؛ لأنَّه إحساسٌ في النَّفس لا يتَّجِهُ إلى الخارج، فلا يكون إلّا أثرًا على النَّفس، غيرَ مصحوبٍ بتذمُّرٍ ولا تسخُّطٍ، والمعنى: أنَّهم لم يفارقوا حُبَّهم للعبادة وإقبالَهم عليها، برغْمِ المداومة والتَّكرير، فهذا أدلُّ على امتلائهم بحبِّ الله وبعظمته وجلاله، وأنَّهم في عبادتهم مُؤيَّدون منه، وتفيضُ عليهم فيوضاتٌ، وتُجَدَّدُ لهم نِعَمٌ تُمسِّكهم بما هم فيه من قُرْبٍ ومناجاة وتسبيح.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 175.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 400.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 84.

دلالةُ المضارع في قوله: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾:

خلودُ التَّسبيح وتجدُّدُه، ودوامُ العبادة، وكمالُ الإخلاص

دلالةُ المضارع في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾ بيانٌ لحالهم المستمرَّة، التي لا يعتريها تبدُّلٌ، فهُم دائمون في تسبيحهم وعبادتهم دونَ انقطاع، والمعنى: أنَّهم على هذا الدَّوام المبارك لا يسأمون أبدًا، فلا يصيبهم فتورٌ أو مَللٌ في أيِّ وقت من الأوقات[1]، ممّا يعكس كمالَ استغراقِهم في عبادة الله ﷻ.

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

استكبارُ الأعداء وتسبيحُ الأولياء، والتَّناقضُ بين الجُحود والإخلاص

في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾ احتباكٌ، فقد ذُكِرَ الاستكبارُ أوَّلًا دلالةً على حَذْفِه في المقام الثّاني، وذُكِر التَّسبيحُ في المقام الثّاني دلالةً على حَذْفِه في الأوَّل، وسِرُّ هذا البناء البيانيِّ البديع: أنَّه جمعٌ بين تصويرِ أقبحِ صفاتِ أعداء الله تعالى - وهو استكبارُهم عن عبادته - وبين إبرازِ أحسنِ صفاتِ أوليائه[2]، وهو دوامُ تسبيحِهم وتنزيههم له؛ ليُظهِرَ التَّباينَ الكاملَ بين حال الفريقين في أجمل صورةٍ وأبلغِ تعبير.

الغرضُ من ذِكْرِ الآية بمجموعها:

ذِكْرُ عبادة الملائكة تسليةٌ لـه ﷺ في مواجهة استكبار المشركين

الغرضُ من قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾ تسليةُ النَّبيِّ ﷺ وطمأنتُه، فإن استكبر هؤلاء المشركون عن عبادة الله، فأوحشَ ذلك قلبَكَ - يا محمَّد - فاذْكُر عبادةَ مَن هم عند ربِّك من الملائكة، الذين يسبِّحون له ليلًا ونهارًا دونَ انقطاع ولا ملل، حتّى تستأنسَ بذِكرهم[3]، وتعلمَ أنَّ لله عبادًا مُخلصين لا يفتُرون عن تنزيهه وإجلاله، ويجوز أن يكون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 196.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 84.

الغرض من الآية إيضاحَ فداحةِ استكبارهم وحقارةِ موقفِهم، وهوانِ شأنِهم، وللتَّأكيد على أنَّ الله تعالى غنيٌّ عن عبادتهم، فهو لا يحتاج إلى طاعتهم وعبادتهم[1]، بينما يواصل الملائكةُ تسبيحَهم الدّائمَ بلا سآمةٍ أو مَلَلٍ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 17، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 354.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"